



مقدمة:

إن من سوء الظن بالله أن يظن العبد بأن الباطل سينتصر، وأنه سيمكن له في الأرض، كلا والله، إنما هو ابتلاء وتمحیص ليميز الله الخبيث من الطيب و يجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا، وفي كل زمان يحدث هذا..
ومن سوء الظن بالله أن يبيس المؤمن ويقطن ويظن أن الله لا ينصر دينه ولا ينصر أولياءه **{وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهْمَتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظْنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}** [آل عمران: 154]، **{وَظَنَّنْتُمْ ظَنَّ السُّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا}** [الفتح: 12].

عند اشتداد الكرب وتعاظم الخطب للمؤمن شأن آخر وحال مع الله يختلف عن حال **{وَمَا أَكْثُرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصُتْ بِمُؤْمِنِينَ}** [يوسف: 103].

1- تفرق جمهم إلا علينا

إن أهل الباطل في عداوة دائمة فيما بينهم، ولكن إذا كان العدو الإسلام فإنهم يجتمعوا كما هو اليوم، قال تعالى: **{بِأُسُّهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}** [الحشر: 14].

إذا كان عدوهم الإسلام تجمعوا وجمعوا ما كان عندهم في مخطط واحد لينفذوه في المسلمين، قال تعالى: **{وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَةً}** [التوبه: 36].

ما الذي أتى بروسيا الملحدة لقتل أطفال المسلمين؟

ما الذي أتى بالمجوس من أصقاع الأرض لينكلوا بالمستضعفين؟

ما الذي أتى بهذا التحالف العربي الروسي الصليبي الرافضي النصيري ليقتل أهل الإسلام؟

إنه الهدف الواحد والمخطط المشترك: وهو أن لا تقوم لأهل السنة قائمة.

أنسنا بأولى منهم بأن نجتمع ونتحد في مخططاتنا ورسم أهدافنا؛ مع أن أهدافنا جميعاً واحدة وهي القضاء على هذا النظام المجرم، وإقامة حكم عادل يقيم شريعة الله ويعطي الناس حقوقهم.

والله الذي لا إله إلا هو ليس عيباً أن نتعلم منهم الاتحاد مع أن في ديننا ما يكفي لتعليمنا وتربيتنا، لقد أمرنا الله بهذا أمراً فقال: **{وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَةً}** [النوبة: 36].

كما يقاتلونكم مجتمعين قاتلواهم مجتمعين ولا تفرقوا عليهم..

أيها الناس ويا أيها المجاهدون ويا أيها القادة: نقولها بألم وحرقة وقلوب تتقطع إن لم نكن يداً واحدة، وأولئك لبعضٍ، وأعداء على الكافرين لا على بعضنا، فنحن السبب في هذه الدماء التي تراق ونحن السبب في هذا التسلط من الأعداء ونحن السبب في تشريد الناس واستغلالهم من الأقوياء وضياع النساء والأطفال والمستضعفين الذين صاروا يقولون: **{رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ الْفَرِيَّةِ الظَّالِمِ أَهْلَهَا وَاجْعَلْنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْنَا مِنْ لَدُنَّكَ نَصِيرًا}** [النساء: 75].

نعم لا تستغربوا فنحن سبب كل هذا لأن الله قال لنا: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمُ أُولَئِكُمْ بَعْضٌ إِلَّا تَعْلُوْهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ}** [الأنفال: 73].

لقد حصل من الفتن والفساد مالا يتحمله عقل ولا يخطر على بال.

فيما من تستطعون فعل شيء ولم تفعلوا دماء المسلمين في رقابكم، وستحملون هذا الوزر على أنفاسكم يوم العرض الأكبر.

2- هذا ما وعدنا الله ورسوله

عندما خان اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم ودبروا له مكيدة لقتله، أخبره الوحي بذلك فأسرع النبي إلى المدينة وجهز جيشه وأجل اليهود من المدينة إلى خيبر، طردتهم من المدينة فاجتمعوا في خيبر وبدأت مكائدتهم وقررروا القضاء على الإسلام برمته..

وبذلوا ينشئون تحالفاً واتحداً للقضاء على رسول الله وأصحابه وبالفعل نجحوا، ذهبوا إلى غطfan ووعدوهم بثمار خيبر سنة كاملة على أن يسيراً ستة آلاف مقاتل لقتال المسلمين، وذهبوا إلى قريش وألبواها فأخرجت أربعة آلاف مقاتل، وهذا غير اليهود الخونة وغير يهودبني قريظة الذين يعيشون بين أظهر المسلمين في المدينة وقد خانوا العهد مع رسول الله. نجح التحالف وأسموه: التحالف العربي الوثني اليهودي العسكري للقضاء على المسلمين، وسمع النبي بالخبر فأقام مجلساً استشارياً مع الصحابة الكرام وأشار عليهم سلمان الفارسي بحفر الخندق فقال: "يا رسول الله كنا في فارس إذا حوصلنا خندقاً".

فاجتمع الصحابة على هذا الرأي، مع أن الذي أشار به ليس عربياً ولكن ما دام أنه يصب في مصلحة الأمة فيأخذون به، إذ لم تكن الحزبيات والعصبيات والقوميات لتفرق بين الصحابة، بل كان يجمعهم الإسلام الواسع الذي استوعب الكل وجمعهم في بوتقة واحدة فكان منهم ما سمعنا.

وحفر الصحابة الخندق في ستة أيام، وأنتم تعلمون أن المدينة صخور والأرض في غاية القساوة، والصحابة لم يكن عندهم كما اليوم آليات ثقيلة ولا حاملات أثقال ولا مكسرات للصخور ولم يكن عندهم عبيد يعملون لهم، وكانوا يحفرون بالمعاول والفؤوس.

فخرج النبي عليهم ورأى ما بهم من برد شديد وجوع شديد وتعب شديد فقال مشفقاً عليهم كما روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إنَّ العيشَ عيشُ الآخرة * فاغفرْ لِلأنصارِ والمهاجرة**

قالوا مجيبين له:

نَحْنُ الَّذِينَ يَا يَعْوَلُو مُحَمَّدًا *** عَلَى الْجَهَادِ مَا بَقِيَنَا أَبْدًا [١]

يأيدهم على الجهاد ما دامت بهم حياة، ولم يتركوا الجهاد لأنهم أصبحوا في قلة من العيش أو شدة من البرد، أو تعب أو نصب.

رسول الله معهم وقد غطى التراب بطنه ليرسم للقاده طريقاً واضحاً في العيش مع جماهيرهم لأن ينظرون إليهم من برج عالٍ.

رسول الله يسلّيهم ويرتجر لهم ويقول:
وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهِ مَا اهْتَدِينَا *** وَلَا تَصْدِقُنَا وَلَا صَلِيْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا *** وَثَبَّتَ الأَقْدَامَ عَنْ لَاقِيْنَا
عَنِ الْأَلْى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا *** إِنْ أَرَادُوا فَتْتَةً أَبَيْنَا أَبَيْنَا أَبَيْنَا [١١]، ويمد بها صوته..

وتمر بالصحابة صخرة عظيمة لم يستطعوا كسرها ويخبرون رسول الله فيمسك المعلول ويضربها ضربة تكسر ثلثها ويقول: (الله أكبر فتحت بلاد الشام).

ويضربها أخرى ويقول: (الله أكبر فتحت فارس).
ويضربها أخرى ويقول: (الله أكبر فتحت اليمن).

والصحابة ينظرون بنفوس مطمئنة موقة بموعود الله راضية بقضاءه، مع أن الأحزاب قد اجتمعوا عليهم ولكن الله أنزل السكينة في قلوبهم فقلوبهم متصلة بالله مدبر الأمور.

وأما المنافقون كمنافقوا هذا الزمان فقالوا كما هي عادتهم في التخديل والتبطئة، محمد يدعنا بقصور فارس وقصور الروم وأحدنا لا يؤمن على نفسه أن يذهب إلى الغائب.

نعم قالوا هذا، {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} [الأحزاب: 12].
إياكم أيها الناس وإياكم يا أهل الشام وأهل حلب أن تظنوا بالله هذا الظن، ثقوا بالله كما وثق رسول الله وأصحابه.
اجتمع الأحزاب وأحاطوا بالمدينة إحاطة شديدة والصحابة في تعب شديد وقد جعلوا النساء والصبيان في سور يحيط بهم وجعلوا معهم من الصحابة من يحمونهم، وجاء الأحزاب ورأى المؤمنون تلك الآلاف المؤلفة من الكفار بحدهم وحددهم وقضهم وقضيدهم، فماذا كان موقفهم؟!

قال الله: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيْمًا} [الأحزاب: 22].

أيها الناس: يا أهل الشام عامة، ويا أهل حلب خاصة: إن موعد الله يأتي عندما يبلغ الكرب منتها، {حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ إِلَّا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214].

هذه سنة من سنن الله في الكون، فلا تحزنوا ولا تيأسوا وثقوا بالله الذي سن هذه السنن، هو ربكم وقد بين لكم هذا فلماذا الخوف؟

إنها جنة أيها الناس، سلعة الله، غالية جدّ غالية، أتشرونها بالقليل؟!
{أَمْ حَسِبُتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَلَكُ الَّذِينَ حَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهُمُ الْأَسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَرُلُزُلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ إِلَّا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214]
{أَمْ حَسِبُتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهُوْدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِيْنَ} [آل عمران: 142].
{أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتَرْكُوْا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ

نحن أولى بالصبر: إذا كان الأعداء يوصي بعضهم ببعض بالصبر فنحن أولى منهم بذلك، {وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى الْهَتِكْمِ} [سورة ص: 6].

{إِنْ كَادَ يُخْسِلُنَا عَنْ آلَهِتَنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا} [الفرقان: 42].

أفلا يكون صبرنا أشد من صبرهم؟ وكيف لا يكون ذلك وهم على الباطل ونحن على الحق.

فمغالبة الأعداء بالصبر هي المصابر التي أمر الله بها في كتابه بقوله: {وَصَابِرُوا}.

يقول صاحب الظلال: "فكانما هو رهانٌ وسباقٌ بينهم وبين أعدائهم، يدعون فيه إلى مقابلة الصبر بالصبر، والدفع بالدفع، والجهاد بالجهاد، والإصرار بالإصرار.. ثم تكون لهم عاقبة الشوط بأن يكونوا أثبت وأصبر من الأعداء. وإذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضي في الطريق، فما أجرَ الحقَّ أن يكونَ أشدَّ إصراراً وأعظمَ صبراً على المضي في الطريق!" [2]

ولو لم يكن من نعمة الصبر إلا أنه يميز الصنوف ويكشف معادن الرجال في مواطن التزال لকفى به من نعمة، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُو أَخْبَارَكُمْ} [محمد: 31].

3- وبلغت القلوب الحناجر

بلغ الكرب بالصحابة يوم الأحزاب منتهاه، وبلغت قلوبهم حناجرهم، حتى أن الله وصف الموقف وصفاً يبين مدى خطورة ما أحاط بالمؤمنين، كالخطر الذي يحيط بال المسلمين اليوم من كل مكان حتى بلغت قلوبنا الحناجر من هول ما يجري، قال الله: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقَكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَنَطَّلُونَ بِاللَّهِ الظُّلُونَ * هُنَالِكَ ابْتُلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب: 10-11].

نظروا إلى الأحزاب وقد انقطعت الأسباب ونفذت الحيل، حتى أئمهم جاؤوا إلى رسول الله وقالوا: يا رسول الله لقد بلغت القلوب الحناجر فماذا نقول؟ فقال لهم رسول الله قولوا: (اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا).

ورسول الله يجأر إلى الله ويتصرّع: (يا رب يا مجري السحاب يا منزل الكتاب يا سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم). [3]

عندما علم الله إخلاصهم وصدق نياتهم، أنزل السكينة عليهم، وأرسل جنوداً لم يروها على أعدائهم، وجاءت الملائكة تكبر في معسكرات الكافرين، فتفرقوا بعد اجتماع، واحتلوا بعد اتحاد، وخالف الله بين قلوبهم، فأرسل الله عليهم ريحًا من عنده فخلعت خيامهم، وأكثفت قدورهم، حتى غارت الخيول بعضها على بعض، حتى كان الرجل منهم يقول: يا بني فلان يا بني فلان: النجاة النجاة، ويخرجوا ويطيروا وبهرموا..

قال الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذْ كُرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلَنَا عَلَيْهِمْ رِحَّا وَجَنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقَكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَنَطَّلُونَ بِاللَّهِ الظُّلُونَ * هُنَالِكَ ابْتُلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُتَنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرَبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَأَرْجِعُوْا} [الأحزاب: 9-13].

هكذا يا عباد الله، هكذا هي سنة الله عند اشتداد الكرب، وهكذا يكون المؤمنون عندما يعظم الخطب، صدقاً وإخلاصاً، وصبراً واطمئناناً، وثقة وتوكلأ، وعلماً بسنن الله.

4- كل يوم هو في شأن

اعلموا عباد الله إن لله تدابير لا يعلمها إلا هو، وقد أحاطها بحكمته وعظمته ورحمته، فهو الذي رفع السماء بغير عمد، وهو الذي كور الأرض، وهو الذي أضاء الشمس، وهو الذي نور القمر، وهو الذي أرسل الرياح، وهو الذي أجرى البحار والأنهار، سبحانه وبحمده {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعْرَةً لِأُولَى الْأَبْصَارِ} [النور: 44].

يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَانٍ} [الرحمن: 29]، فقال الصحابة يا رسول الله: وما شأن الله؟ قال: (مَنْ شَانَهُ أَنْ يَغْفِرَ نَنْبَأُهُ وَيُفَرِّجَ كَرْبَلَةَ وَيَرْفَعَ قَوْمًا وَيَضْعِفَ أَخْرَينَ) [4]

كل يوم هو في شأن، ومن شأنه سبحانه أنه يجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويغيب مكروباً، ويفك عانياً، ويشفى سقماً، {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ} {السجدة: 5}.

{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلٍ مُسَمَّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفْصِلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوقَنُونَ} [الرعد: 2].

{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمَاءَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيَّتِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيَّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ * فَذِلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس: 31-32].

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} [هود: 66].

هذا الوجود الذي لا تعرف له حدود، كله منوط بقدرته، متعلق بمشيئته، وهو قائم بتدبره.

هذا التدبر الذي يتناول الوجود كله جملة ويتناول كل فرد فيه على حدة ويتناول كل عضو وكل خلية وكل ذرة، ويعطي كل شيء خلقه، كما يعطيه وظيفته، ثم يلحظه وهو يؤدي وظيفته.

هذا التدبر الذي يتبع ما ينبع وما يسقط من ورقة، وما يمكن من حبة في ظلمات الأرض، وكل رطب وكل يابس، يتبع الأسماك في بحارها، والديدان في مسار بها، والحشرات في مخابئها، والوحوش في أوكارها، والطيور في أعشاشها، وكل بيضة وكل فرج، وكل جناح، وكل ريشة، وكل خلية في جسم.

صاحب التدبر هذا لا يشغله شأن عن شأن، ولا يند عن علمه ظاهر ولا خاف، إنه الله رب العالمين، مالك يوم الدين، قيوم السموات والأرض، لا يغيب عنه حالكم يا أهل حلب ويا أهل الشام، إنه يكلؤكم ويرعاكم في كل لحظة وإلا هلكتم، وهو لأعدائكم بالمرصاد، قادر عليهم، ولكنه ي ملي لهم لحكمة لا نعلمها نحن.

فتقوا بالله كما وثق نبيكم وأصحابه، والعاقبة لكم كما كانت لهم، {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أُمُرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: 21].

5- سبيل الخلاص

يا أهل الشام: قدموا الأسباب من حسن التوكل على الله تعالى، ابرأوا من حولكم وقوتك والجئوا إلى حول الله وقوته، أكثروا من التضرع والبكاء، جدوا التوبة والأوبة إلى الله وهجر المعاصي وترك الموبقات والإعراض عن الكبائر وهجر الفواحش والإقبال على المساجد والقنوت بين يدي الله..

ادعموا بعضاكم بكل سبيل مادي أو معنوي أو إعلامي أو نفسي.. واتركوا النصر لله ولا تشغلو أنفسكم به فهو مالكم. إن ما يجري اليوم في بلاد الشام وفي حلب خاصة ليدمي العيون ويبكي القلوب ويزعج النفوس، صنوف من البلاء والآلام والهموم والأحزان يستمر لأعوام.

ولكن النصر قادم، النصر في السماء، وإذا أراده الله بكلمة كن سيكون، فاشتغلوا بأسبابه واعتمدوا على مسببها، واعلموا أن كل ما يحصل لا يخرج عن إرادة الله سبحانه {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ شَيْءًا عَلِيمًا} [التغابن: 11].

1 - البخاري/ كتاب المغازي، 4099 - مسلم/ كتاب الجهاد 4676

2 - الظلال 1/552

3 - كما جاء في البخاري ومسلم

4 - ابن حبان، وصححه الألباني 688

المصادر: